العزلة في رأس الجبل

الديمقراطية

٤ — حرية ما تطلب

وبعد أن انتهى صاحبي من قصة القادر على كل شيء

قلتُ : إذاً . أصل الشر في النظام الحالي هو الذي جعل الدينار صاحب السلطة .

قال : بل قل جعل الدينار إلـه العباد وأقام المتمولين كهنة له يتقبلون من الشعب القرابين والضحايا .

قلتُ : إذاً يجب أن نبحث عن نظام آخر قبل أن نهدم نظام ملكوت الدينار، فما هو النظام الآخر ؟

قال : لا يخفى عليك ولا على أحد . هو نظام الديموقراطية المطلقة .

قلت : نحن الآن في عصر الديموقراطية منذ أول القرن التاسع عشر او قبله . ولا يزال الدينار سيداً حتى في أعرق الجمهوريات ديموقراطية كأميركا مثلاً . ويخشى أن تكون الديموقراطية الآن توطئة للدكتاتورية التي هي شرٌّ من الحكم المطلق . لأن الدكتاتوريات نشأت من الجمهوريات أو الحكومات الديموقراطية . ألست ترى هكذا ؟

قال مبتسماً ابتسامة الساخر : أنا قلت الديموقراطية المطلقة . أي الديموقراطية في نظام اقتصادي غير هذا النظام . فما دامت الديموقراطية ناقصة فالأمر كما تقول . ما دام الدينار صاحب السلطان فهو يحوّل الديموقراطية الى دكتاتورية . هل تحسب الديموقراطية الخالية ديموقراطية مطلقة تامة ؟

قلت : أليست الديموقراطية حكومة شعبية . أي أن الشعب يحكم نفسه بنفسه، بحكومة يعينها مجلس نواب ينتخبه الشعب الحرّ ؟

قال : نعم . ولكني لا أرى إلاّ أرقاء ينتخبون عبيداً . وهؤلاء يعينون خدّاماً يخدمون أسياداً أعلين ، هم كهنة الإلـه الدينار . انما المنتخبون عبيد لمن أقامهم الدينار

أسياداً على المرافق والمرتزقات . فهم أدوات تنفذ ارادة الأسياد . والنائب المختار إذن آلة في أيدي هؤلاء الأسياد أيضاً . فالسيد والسد وعبد العبد كلهم عبيد للدينار الجبار الذي في يده صولجان الاستبداد . والقانون الذي سنّه هؤلاء المختارون الذواب ساجد عند قدمي الدينار الجبار . والعدالة تسبح بحمده . وملائكة السلطة التنفيذية ترتع بسعادته وهنائه . والجمهور يتطلع الى الجالس على العرش يتوقع من نعمته رحمة

قلت : إذن . لا أمل بالحصول على ديموقراطية مطلقة إلاّ بخلع هذا الدينار الجبار . فما الحيلة ما دام هذا الإله الأرضي قابضاً على الصولجان وفي يده الناخب والمنتخب والحاكم والمحكوم

قال : خذ الحيلة من أفواه حكماء الحيوانات .

جمهورية حيوانات

رووا أن الدجاجة قالت للحدأة ذات يوم : بالله تعلّميني التحليق في الجو مثلك لكي أسلم من غزو الثعالب وبنات آوى . فإنها كل يوم تسطو علينا وتروعنا وتخطف منا ما تستطيع حمله .

فقالت الحدأة : ليس الطيران علماً يا عزيزتي ، وإنما هو جناحان طويلان عريضان . وأنتنّ طائفة الدجاج فقدتنّ طول الجناحين وعرضهما منذ اعتمدتنّ في رزقكنّ على الإنسان . على أني أرى أن حيلة « فرّق تسد » قد تنقذكنّ أحياناً من أنياب الثعالب والذئاب

قالت الدجاجة : ما هي حيلة « فرّق تسد »

قالت الحدأة : سأعملها أنا وأريك

ومضت الحدأة ورأت ذئباً . فسألته كيف الحال يا صاحب ؟

فقال جوعٌ ولا شبع ، وتعبٌ ولا راحة . أقضي الليل بعد النهار في السعي وراء دجاجة أو بطة . حتى إذا ظفرت بها اضطررت أن أقدمها الى الأسد الملك لكي يتنحى منها ولو عظمة وإلاّ فيسحقني سحقاً

فقالت : إن ملككم طاغ طالم باغ . فلماذا لا تخلعونه وتؤلفون منكم جمهورية

تقسم الرزق بينكم بالعدل ، فلا يذهب الجانب الأكبر منه الى الملك ووزيره وأعوانه وهم لا يعودون اليه ، ولا يتعبون في تحصيله .

فقال الذئب : والله إنها لفكرة حسنة . ولكن كيف نستطيع خلعه وهو قوي وله أعوان ؟

فقالت : أقوى أعوانه النمر وزيره الأول . يعدوا النمر برئاسة الجمهورية . فينفصل عنه ويعاونكم على خلعه

قال : والله إنك لحكيمة الفلاسفة . سنفعل

ومضت الحدأة . فرأت النمر : السلام عليك أيها الوزير الكبير . كيف الحال ؟

قال : والله . ان الرعية كسولة ، فقل المورد

قالت : قل المورد لأن الملك لا يتعب الرعية لكي تشبع وتقوى على العمل

فقال : صدقت . إنه شديد الطمع عديم الشبع . يحرم الشعب حتى الوزراء أحياناً .

فقالت الحدأة : أنت أولى منه وأجدر أيها النمر لأنك أشد اعتدالاً وأكثر عدلاً . فلماذا لا تخلعه وتتولى الحكم أنت ؟

قال — كيف نستطيع وهو يجند كل الرعية للدفاع عنه .

فقربت الحدأة منه وهمست في أذنه . الكلام يسرك ان الرعية ضاق ذرعها به ، وأنتم تتآمر الآن عليه بخلعه وانشاء جمهورية تقسم الرزق بالعدل . فاقبل نصحي وترأس المؤامرة تكن رئيس الجمهورية . ثم دكتاتوراً . ثم ملكاً مطلق السلطان . فاذا عدلت بي الصولجان لك .

* * *

وما هي إلا أيام معدودة حتى تمت المؤامرة وتألفت الجمهورية سراً . وما درى الأسد إلا وقد حمل اليه في عرينه وفد من النمور والضباع والذئاب ، وأبلغوه أن حكومة الشعب الجمهورية قد قررت خلعه لمدة ثلاثة . وانه سيبقى أسيراً في عرينه والسلاسل في يديه ورجليه ، ويُقدَّم له كل يوم نصف رغيف معرأة .

فقال الملك الأسد : أين النمر ؟ لا أراه معكم في وفدكم . لقد أبدلتم بملككم وزيره ،

لسوف تروون ما اذا كانت جمهوريتكم الزائفة أعدل من ملكتكم . أما الحكم الذي حكمتموه عليَّ فلا يفيد لكم حتى تنفيذه الآن اخواني الأسود سيأتون لانتقامي . فاذا تركتموني أبرح الى منطقة أخرى بعيدة عنكم ضمنتم الامن لكم .

— كيف نضمن إنك لا تخوننا ولا تغدر بنا ؟

— أعاهدكم بالشرف الملوكاني . أنتم الآن عصبة فلماذا تخافون مني ؟

— قالوا : أكتب لنا ميثاق الأمان بيننا وبينك

فكتب الميثاق ، وانطلق الى غابة بعيدة .

* * *

ما انقضت برهة قصيرة على الجمهورية حتى صار النمر دكتاتوراً أشد ظلماً من الأسد الملك . فكان يفرض على الذئاب والضباع والثعالب وبنات آوى قدراً معدوداً من الدجاج والنعاج والمعاز . فاذا لم يؤدُّوا هذه الأتاوة عاقبهم عقاباً شديداً .

حينئذٍ اعتصبت الوحوش وامتنعت عن الصيد والغزو والسطو . فقال النمر الدكتاتور : اذا امتنعتم عن الصيد أيها الأغبياء . فماذا تأكلون ؟

قالوا : نأكل الصب والقثاء والخيار وسائر الفاكهة لأننا نباتيون كما أننا أكلة لحوم . وأما أنتم النمر والفهد فلا تعيشون من غير لحم ودم . فموتوا جوعاً .

ومضت مدة كانت أكنان الدجاج وحظائر الاغنام في أمن من غزوات الوحوش . وأما النمر فاستعان بالفهد لتأديب تلك الوحوش وارغامها على العمل حتى ضاقت ذرعاً به .

وندمت الوحوش لخلعها الأسد لأن النمر جاء بعده أشد طغياناً وأكثر عسفاً وظلماً . واجتمعت في مؤتمر سري وبحثت في الأمر وقرَّرت ارسال وفد الى الأسد لكي يستمع منه ويستعطفه على أن يعود الى عرشه .

ولما مثل الوفد بين يدي الأسد يستعطفه ، قال الأسد : لن أعود إلاَّ اذا خلعتم النمر كما خلعتموني ، وجئتم كلكم إليَّ تبايعونني وتحلفون يمين الطاعة لي .

فعاد الوفد حزيناً لأنه رأى أن عودة الأسد الى عرشه ستكون نقمة أشد وطأة عليهم

* * *

وفيما الوفد عائد بخفي حنين صادف فيلاً فقال أحدهم : لماذا لا نضع صولجان الملك في يد هذا الفيل . فهو أقوى من الأسد والنمر ، وهو لا يفترس إلا قوة علينا ، لأنه لا يأكل لحوماً .

فاستوقفوه وعرضوا الأمر عليه . فضحك وقال : أتظنون إنكم فيما تبحثون عن سيد يحكمكم تنفصلون عن رقابكم نير العبودية ؟ الأحرار لا يفتشون عن سيد .

قالوا : نريد ملكاً ديموقراطياً .

ففهقه وقال : الملكية المطلقة والديموقراطية لا تجتمعان . إما هذه أو تلك .

قالوا : ماذا تفعلون أنتم أيها الفيلة في نظامكم السياسي .

قال : نحن جمهورية بحتة .

قالوا : إذاً ، بربك تعالَ كن عندنا رئيس جمهورية

فأمعن الفيل في الفهقهة وقال : لا تصلح الجمهورية لكم ولا أنتم تصلحون لها .

قالوا : كيف يمكن أن نصلح لها وهي تصلح لنا ؟

قال : تصلحون لها إذا صرتم كلكم أسوداً بحيث يصلح أي فرد منكم رئيساً للجمهورية. نحن كلنا أفيال ، وأي فرد منا يصلح أن يكون زعيماً يمشي أمامنا فنسير وراءه كتلة واحدة. وأما أنتم فلا تجانس بينكم ، بل أنتم من جنسيات مختلفة . أسد وفهد ودب ونمر وذئب وضبع وثعلب وابن آوى الخ : متفاوتون في القوة والشهوة والطمع . القوي فيكم يأكل الضعيف منكم . فلا يصلح لكم إلا الحكم الملكي المطلق بحيث يكون الأقوياء فيكم أسياداً لكم ، وأنتم عبيد لهم . تتعبون وتشقون وهم يتمتعون بجني تعبكم ، وأنتم تتنعمون بما يبقى لكم من الفضلات . كونوا جميعكم أسوداً فتتعادل قواكم وشهواتكم ، وتتساوى حصصكم في أرزاقكم ، وإلا فالأقوياء أسياد ، والضعفاء عبيد . هذه سنة الطبيعة ، فعبثاً تحاولون أن تتمردوا عليها .

فعاد أفراد الوفد يضربون أخماساً بأسداس ، وهم يفكرون بفلسفة الفيل الحكيم . وما أن رووا الخبر بتفاصيله لاخوانهم في المؤتمر حتى باغتهم «طابور» من الأسود يضرب نطاقاً حول مؤتمرهم . ثم أعلن قائد الطابور أن الأسود قد رأت أن سعادة المملكة في

تلك المنطقة تتوقف على الحكم الجمهوري العادل . فأنت الأسود جمهوريتهم . وقررت هذه الجمهورية أن تسوس المملكة . وأن تدرب سائر الوحوش في العمل تدريباً مناسباً يكفل لهم الرزق بحسب ما يفرض عليهم من العمل . وبينهم الوحوش ومن جملتهم الفيلة انهم جميعاً عبيد لجمهورية الأسود، وعليهم الطاعة المطلقة .

عند ذلك انبرى الفهد وتقدم الى الأسد رئيس الجمهورية ورفع يده بورقة وقال . هل لي الرئيس هذا الميثاق الملوكاني ؟

فقال الأسد : هذه فصاصة ورق . وقد مزقها فسنة سنشاركم الفيل .

***

قال صاحبي : هذه حكاية جمهورية الحيوانات .

... هذه مملكة الحيوانات عرفت الديموقراطية الحقيقية التي لا تضل، ونحن لم نعرفها، فلكي تنجح الديموقراطية الانسانية يجب أن يكون جميع أفراد الأمة أسوداً أو فيلة، أي متجانسين في المعرفة والأخلاق والعقل على الأقل .

قلت : هذا أمر يكاد يستحيل حدوثه . كيف يمكن أن يتحول الثعلب والضبع والذئب الخ الى أسود ؟ وكيف يترقى الناس الى درجة واحدة من الرقي ؟

قال : إن الثعلب الذي لا يرتقي الى أسد يهلك ، وهكذا دواليك . كذلك الأمر في الناس من لا يرق الى المستوى يبد . وعملية التطهير هذه جارية في بعض الجمهوريات كالولايات المتحدة الاميركية مثلاً حيث أفراد الشعب أكثر تقارباً فيما بينهم في المعرفة والأخلاق من أفراد الجمهوريات الأخرى . وعلى الباقي يتساوون .

قلت : ولكن على الرغم من ذلك لا يزال الدينار الجبار إلهاً أقوى جبروتاً في أميركا (بلاد الأوليتي دولار) وفي غيرها من البلاد الجمهورية . ولذلك سيبقى الناس هناك عبيداً وأسياداً وأسياد أسياد .

قال : متى صاروا كلهم أو معظمهم أسوداً في المعرفة والأخلاق استطاعوا أن يخلعوا ذلك الاله الدينار الجبار عن كرسي السؤدد ، وحينئذٍ يستثمرون الديموقراطية السياسية بالديموقراطية الاقتصادية ، وهي الديموقراطية المطلقة التي نوهت بها في أول هذا البحث .

ويصبح الديناز الجبار أحد أفراد الرعية لا حول له ولا طول إلا بقدر ما يمكنه أن يقتم حاجاته برفاهية الحياة .

وبقيت أفكر برهة وهو صامت . ثم قلت : إن المسألة لا تتحصر في لحظة واحدة: الحرية . أرى ان الحرية هي مفتاح الخلاص من عقال الديناز الجبار . بها النجاة من العبودية لهذا الاله — الحرية في الانتخاب وفي كل شيء

قال : بالطبع ، إذا قامت الحرية سقطت العبودية .

قلت : إذاً لا بدّ من ذلك سجن الباستيل لاطلاق الحرية .

* * *

وإذ ذاك رأى المكاري قادماً . فقال اسمح لي الآن أن استقبل المكاري الذي رأيته أمس لأرى ماذا جاء به لي .

وذهب واستقبل المكاري وتسلم منه خرجاً ، ورأيته يأخذ من الخرج كتاباً وبعض جرائد ، و « بقجة » انه أعلم ما فيها ، وخطاباً .

ورأيته قد فضّ الخطاب وجعل يقرأه وهو يتجهم ، وما انتهى منه حتى انضحت في وجهه أمائر الاستياء . ثم دخل الى الغرفة . وأودع فيها تلك الأشياء . ثم مضى بالمكاري الى مخزن الحاصلات وزوّده ببعض ما فيها وصرفه في سبيله .

وعاد إليّ وقد بدا عليه شيء قليل من القلق فقلت : خيرٌ ان شاء الله . عسى أن يكون بريدك قاضياً لحاجاتك .

فتمثّل الابتسام وقال : أجل أن بريدي يحمل لي أكثر من حاجاتي .

قلت : وعسى أن تكون الأخبار سارّة .

قال : إني أقرأ الجرائد في أوقات الفراغ ، فلست الآن في عجلة للاطلاع على سخافات البشر . هل تريد أن تطلع عليها الآن ؟

قلت : ان قراءة الجرائد أمر لا يفوت أوانه . وإنما عشرتك هي الأمر الذي أخاف ان يفوتني ، فلا أريد أن أضيع وقتاً في قراءة السخافات (فلتهنه صاحبتها) .

قال : إنك تترجم مثل ما في ضميري . عشرتك الآن مغنم لي

وفي العدد القادم حديثهما عن الحرية .

ماذا كان في العزلة

ما خطر لي أن يُفهم من مقالات « العزلة في رأس الجبل » ان الشخصيتين المذكورتين فيها تنسبان الى شخصين حقيقيين معروفين . فقد كتب لي أديب يسمي هذين الشخصيتين ويحاول أن يطبق الحوادث التي سردت في المقالات عليهما ، فيجد أنهما في بعض الاحوال غير مطابقة للواقع ، ويود أن تعدل وتنقح .

ولعلّ هذه المظنّة قد طرأت على قارىء آخر ، أو قرّاء آخرين . فأستغرب أن يلوح لبعض القراء ان لحديث القصصي لا بدّ أن يكون لشخص فيه وجود حقيقي ، في حين أنه معلوم أن أشخاص القصص والروايات خيالية . وليس الغرض من الروايات أشخاصها بل المقصود المغازي المضمرة والظاهرة فيها . وأنا روائي ، ولي روايات عدّة ، وفيها أشخاص عديدون . فلا أقصد أشخاصاً معيّنين ، لكي أجعل أخلاقهم وسلوكهم وتصرفاتهم موضوع كلامي .

ولذلك أرجو من هذا الأديب ومن غيره ، ان يعلم ان الناسك الذي في مقالات العزلة . هو أنا ، والصحفي الذي زار الناسك ، هو أنا ، وكل رجل أو امرأة يظهر في هذه المقالات هو أنا .

* * *

وقد ورد لي خطاب من قارىء آخر يسألني من هو كاتب مقالات العزلة . فهو يود أن يعلق عليها ، ولكنه قد لا يفعل الاّ إذا علم من هو كاتبها .

ولهذا الأديب المحترم أقول أيضاً : هل من غرابة أن أكون أنا كاتبها ؟ وهل ما يمنعه أن ينتقد إذا كنت أنا كاتبها إذا كان يريد النقد ؟

وبهذه المناسبة أود أن أبلغ القراء الكرام أن كل ما ينشر في المقتطف من غير توقيع هو لي ، وما ليس في توقيع باسم كاتبه .

نقولا الحداد
رئيس تحرير المقتطف